الفصل الثالث

الفخر الدينى
أو الحماسة الدينية

لما جاء الإسلام ضم العرب تحت لواء واحد ، ودعاهم إلى بسط سلطانه ، فكانت الخطوة الأولى فى ذلك « غزوات » الرسول (صلعم) ، ثم كانت الخطوات الأخرى حروب الفتح ، وكان الميدان واسعاً جداً يمتد من شبه الجزيرة ، إلى مصر إلى العراق ، إلى الشام ، إلى فارس ، إلى أوربة ؛ وكان الأبطال ورجال الحرب والسياسة كوكبات كوكبات ! وكان العراك شديداً ، والجيوش جرارة ، وكان الشعر ينطلق مدوياً ، وهو لا يختلف فى شىء عن الحماسة الجاهلية إلا فى مصدره الدينى ، وصبغته الدينية الجديدة . وخروجه عن حدود الفردية والقبلية إلى أجواء القومية العربية الإسلامية .

ومما يروى فى هذا الصدد أن عياض بن غنم كتب إلى خالد بن الوليد يستنجده حين كان يحاصر « دومة الجندل » ، فكتب إليه خالد : من خالد إلى عياض : إياك أريد .

لَبثْ قليلاً تَأْتِكَ الحلائب يَحْمِلْنَ آساداً عليها القاشِب [1]
كتائِبٌ تتبَعها كتائِب

ولما تغلب المثنى بن حارثة الشيبانى ، فى عهد عمر بن الخطاب ، على الفرس

---

(١) الحلائب : النوق . القاشب : السيف الصقيل .

فى موقعة « البويب » بالعراق ، وقتل مهران قائدهم، قال الأعور الشّنّى مشيداً ببطولة المثنى بن حارثة :

هاجَتْ لأَعورَ دارُ الحىّ أَحزانَا ... واستبدلَتْ بعد عبد القيسِ هَمْدَانَا

وقد أرانا بها والشَّمْلُ مجْتَمِعٌ ... إذْ بالنُّخَيْلَة قَتْلى جنْدِ مِهرانَا (١)

أزمانَ سارَ المثَنَّى بالخُيولِ لَهمْ ... فقُتِّل القوم من فُرْسٍ وجِيلانَا

سَما لأَجْنادِ مِهْرانٍ وشيعته ... حتَّى أَبادهم مَثْنَى ووُحْدَانَا

ما إنْ رأَيْنا أَميرًا بالعراقِ مضى ... مثل المثَنَّى الذى من آلِ شَيْبانَا

إنَّ المثنَّى الأَميرُ القَرْم لاَ كذِبٌ ... فِى الحَرْبِ أَشْجَع من ليثٍ بخفَّانَا (٢)

وفى يوم « مؤتة »، وقد قاتل العرب قوماً يفوقونهم عدداً، واستماتوا فى ساحة الحرب بل مات أبطالهم جميعاً الواحد بعد الآخر ، وكان كل منهم يحمل راية المسلمين ، وقف عبد الله بن رواحة يقول وفى يده الراية :

أَقسمتُ يا نفسُ لَتَنْزِلنَّهْ ... لتَنْزِلنَّ أو لتُكْرَهنَّهْ

إنْ أَجْلَبَ الناسُ وشدّوا الرَّنَّهْ ... مالِى أَراكِ تكرهينَ الجَنَّهْ

يا نَفْس إلاَّ تُقْتَلى تموتى ... هذا حِمامُ الموتِ قد صُلِيتِ

وما تمنَّيْتِ فقد أُعْطِيتِ ... إن تَفعَلِى فِعْلَهما هُدِيتِ

ثم ظل يقاتل حتى قتل .

وفى يوم القادسية نسمع أبا محجن الثقفى يتغنى بحسن بلائه ويقول :

---

(١) النخيلة : مكان بالعراق قرب نهر البويب .

(٢) خفان : مأسدة مشهورة قرب الكوفة .

لقد عَلِمَتْ ثقيفٌ ، غيرَ فَخْرٍ ، بأَنَّا نحن أَكرمُها سيوفَا
وأَكثرهمْ دروعًا سابغاتٍ وأَصبرهم إذا كرهوا الوقوفَا
فإنْ أُحْبَسْ فذلكُمُ بلائِى وإن أُترَكْ أُذيقهُم الحتوفَا

وهكذا نسمع الشعر يملأ الأجواء متغنياً بانتشار الدين الجديد ، فى لهجة حافلة بعزة النصر ، والإيمان الحى ، والشجاعة المقعدة على العقيدة الثابتة . وإن فى ما وجه إلى الرسول (صلعم) من مدائح ، روائع فخرية حماسية تهز النفوس والقلوب هزًّا .

ومن ذلك قول النابغة الجعدى :

خليلىَّ عُوجا ساعةً وتهجَّرا ونُوحَا على ما أَحدث الدَّهر أَو ذَرا
ولا تجزعا إن الحياة ذميمةٌ فخفَّا لروْعات الحوادث أَوْ قِرا
وإن جاء أَمرٌ لا تُطيقان دَفْعَه فلا تَجزعا ممَّا قَضى الله واصبرا
أَلم تَريا أَن الملامةَ نفعُها قليلٌ إذا ما الشىءُ ولَّى وأَدبرا
تَهيج البكاءَ والندامة ثم لا تغيِّرُ شيئاً غَيْرَ ما كان قُدِّرا
أَتيتُ رسول الله إذ جاء بالهدى وَيتْلو كتاباً كالمجرَّة نَيِّرا
أُقيمُ على التقوى وأَرْضَى بفعلها وكنتُ من النَّار المخوفَةِ أَحْذَرا

ومنها فى الفخر :

وإنا لقومٌ ما تعود خيلنا ـ إذا ما التقينا ـ أَن تَحيدَ وتَنْفرا
ونُنكر يَوْمَ الرَّوع أَلوانَ خيلنا من الطَّعن حتى نَحْسِب الجونَ أَشقرا!

بلغنـــا السَّماءَ مجدُنا وجُدُودُنا وإنا لنرجو فوقَ ذلكَ مَظهرا

ولا خير فى حِلمٍ إذا لم تكن له بوادِرُ تَحْمى صَفْوَه أن يُكدَّرا

ولا خير فى جَهْلٍ إذا لم يكن له حليمٌ إذا ما أَوْرَد الأَمْر أَصْدَرا

* * *

وإننا نستطيع أن نضيف إلى هذا الفخر الدينى ما نظمه الشعراء على ممر العصور من المدائح النبوية وما إلى ذلك ، من مثل البردة للبوصيرى ونهج البردة لأحمد شوقى ، وإننا نلمس فى تلك القصائد من الحماسة الدينية الصادقة ومن الروعة الشعرية والبيانية ، ما يجعل لتلك القصائد محلاً مرموقاً فى عالم الأدب .